مكارم الأخلاق من حقيقة الوحي دُربة الإنسانية إلى التوحيد والعدل والحياة الطيّبة

د. محمود حيدر

أستاذ محاضر في الفلسفة والإلهيات / لبنان

ملخص البحث

تتغيا هذه الورقة تظهير الصلة بين الأسس الوحيانية التي تقوم عليها مكارم الأخلاق، ومبدأي التوحيد والعدل كأصلين من أصول الدين الخاتَم. والمقصود من هذه الغاية، لا المقارنة بين أمرين متناظرين - قد يُظن أنّهما على تباين وانفصال - وإنّما لتبيين هندسةٍ معرفيةٍ تقوم على واحدية القضية وتكاملها. مقتضى هذا الأمر، النظر إلى الأخلاق النبوية بوصفها رسالةً توجيهيةً وتدبيريةً تستظهر الاعتناء الإلهي بعالم الإنسان، وهدايته إلى كماله الوجودي وحياته الطيّبة.

ثمّة عروة وثقى تصل التوحيد بحقيقة البعثة النبوية وخاتميتها. وإنّ شرط الإيمان بهذه الواحدية، أمرٌ موقوف على إدراك البعد الوحياني لمكارم الأخلاق كقيمة عليا مؤسِّسة للدين الخاتم، ومتمِّمة لمقتضيات الوحي وقوانينه السارية على غير انقطاع في التاريخ البشري؛ لهذا قال فيها مولى الموحِّدين الإمام علي ﷺ: "**إنْ الله جَعلَ مَكارِمَ الأخْلاقِ ومَحاسِنها وصلًا بينَنا وبَينَهُ**".

وعليه، ينظر بحثنا إلى مكارم الأخلاق بوصفها نظامًا نبويًا هاديًا للحياة الإنسانية وراعيًا لها. فللأخلاق النبوية المسدَّدة بالتأييد الإلهي، ماهيتَها الأصيلة والمفارقة في الآن عينه: هي من جهة، نافيةٌ لأخلاقيات العقل الدنيوي المحكوم إلى النسبية، والمسكون بالهوى والمنفعة والأنانية، ومن جهة موازية، عطاءٌ رحمانيٌ يفيض تخلُّقًا ورحمةً للعالمين. ومن أجل ذلك سنبتني رؤيتنا إلى مكارم الأخلاق بوصفها إعلانًا إلهيًا عن النبوة الخاتمة وكمال الدين. وتأسيسًا على ذلك يواصل البحث مسعاه إلى تأصيل نظرية معرفةٍ أخلاقيةٍ وحيانيةٍ تفلح في مواجهة التحديات الكبرى للإنسانية المعاصرة. ولتظهير هذه الغاية والتعرف على بواعثها سنحاول متاخمتها من ثلاثة أوجه: من وجهٍ أول، هي دعوة معرفية إلى التوحيد، ومن وجهٍ ثانٍ دعوة سلوكية تطبيقية تأخذ بنداء الشريعة وتلتزم به ظاهرًا وباطنًا. وهي من وجهٍ ثالث دعوة توجيهية اهتدائية قوامها الإقناع الرضي بالأمر الإلهي. ولقد ورد ما يشير إلى تلازم هذه المعاني الثلاثة كأركان أساسية في مكارم الأخلاق. كما في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ **[النحل - ١٢٥]**.

وهكذا، جاز القول إنّ الآية المذكورة توحي إلى منهج بيِّنٍ للمعرفة الأخلاقية، قوامه ثلاث طرق متصلة ومتلازمة بغية الوصول إلى ما نسميه بقواعد علم التربية الوحيانية:

أ- طريق الحكمة، ومؤداه إقامة الخطاب مقام التناسب بين الموضوع والمخاطب. فلا يزيد ولا ينقص ممّا يقتضيه الموضوع وما هي عليه الجهة المخاطبة. وبذلك يكون اللقاء على أتمه بين الكلام المرسل وقابلية المخاطب للفهم والقبول للمخاطب.

ب- طريق الموعظة الحسنة، ويعني المخاطبة المسدَّدة بألطاف الكلام الإلهي ومقاصده. بها يستشعر المخاطَبُ صدق الذي يخاطبه؛ لأنّه قول منقول عن الله. وعلى هذه النشأة تكون الدعوة إلى سبيل الحق دعوة الحق بلسان العبد، فلا تخالطها أنانية الداعي وغرضيته.

ج-طريق الجدل الأحسن، ويعني إبداء الحجة والبرهان أمام المخاطَب على نحو اللطف والإحسان، لا على سبيل الاختصام والإفحام قصد الغلبة عليه.

١-في ماهية مكارم الأخلاق ومعناها وصفاتها

وجدنا أنْ ندخل إلى فهم مكارم الأخلاق بوصفها الأصل الذي منه كانت البعثة النبوية، لجهة انحصار مهمتها في هداية الإنسانية الجامعة إلى التوحيد الأكمل. وقوله ﷺ :"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". هو كشف للمقصد الأعلى من الرسالة. أي جلاء حقيقة التوحيد والعدل من خلال الكتاب الإلهي والشريعة المقدسة. فالمقصود الإلهي ممّا نُزِّل على النبي هو دعوة العالمين إلى توحيد الله، والارتقاء بهم من حضيض الجاهلية إلى كمال المعرفة. ما يشير إلى أنّ ثمّة تناسبًا لا تباين فيه بين ختم تاريخ النبوات التي بُعثت بها مع نبيّ الإسلام ﷺ وتمام مكارم الأخلاق رسولًا للعالمين. وذلك متحصلٌ منطقيًا، من أنّ الشيء حين يُختم يبلغ تمامه. ومكارم الأخلاق التي بعث النبي الخاتم ليتمِّمَها هي عين الخاتمية، وجوهرها كمال الدين، وكمال الدين معرفة الله. ولمزيد من استيضاح البنية المعرفية نتوقف عند طائفةٍ من صفاتها وركائزها:

لمكارم الأخلاق صفات تمنح لها بحسب مقاصدها وتنزلاّتها. ولنا أنْ ندرج بعضًا منها تحت عناوين مجملة سنمر على تفصيلها لاحقًا:

أولًا – إنّها صفة النبي نفسه، حيث بلغت به مآلها الأعظم، واستحق بها رتبة الآدمي الأكمل.

ثانيًا – إنّها صفة الإنسان الذي بعث من أجله النبيّ الخاتم ليتمم له إنسانيته. فإذا جرى هذا الإنسان مجراها، بالتصديق والتوحيد والإيمان والتخلّق حصَّل الحكمة. ومن علامات حكمته أنّه أنزل كلّ شيءٍ منزلته، فلا يتعدّى به مرتبته، وأعطى كلّ ذي حقّ حقّه، ولا يحكم في شيءٍ بغرضه ولا بهواه، ولو تدرَّج الإنسان بالسير والسلوك والمجاهدة والتعقُّل اتسعت آفاق نفسه، وتهيّأت لتلقي المعارف الإلهية والعلوم اللدنية التي بها ترتقى نفسه إلى الملأ الأعلى بعناية الله وتسديده. وهذه الحكمة – المركبة من العلم والعمل – هي تلك التي يُعبَّر عنها تارة بالقرآن، وتارة بالنور، وهي من فضل الله يؤتيها من يشاء، ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة-٢٦٩].

ثالثًا – إنّ مكارم الأخلاق هي صفة للصراط المستقيم. فمن مشى على الصراط والاستقامة، فأدركها بالتقوى والورع والزهد. فمن اتقى الله علمه الله وأدخله في درعه الحصين، وجعل له نورًا يمشي به في الظلمات. كما تعبّر الآية الكريمة: ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾ [الأنعام-١٢٢].

رابعًا – إنّها صفة الأمة الوسط، التي قال الله فيها مخاطبًا نبيه: ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ** ﴾ [آل عمران-١١٠]، ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾ [البقرة-١٤٣].

خامسًا – إنّها صفة للأبعاد المعنوية الباطنية التي تختزنها الشريعة المقدسة. وهي الأبعاد المتممة للبعثة النبوية.

سادسًا – إنّها الصفة التي يظهر فيه قول أهل العصمة على تمامه حين أشاروا إلى مبدأ (الأمر بين الأمرين) كمبدأ مؤسس لعلم التوحيد، والتعرُّف إلى العدل الإلهي في خلق العالم. فإذا كانت غاية ختم النبوّة حفظ مختزنها الإلهي بالمكارم، فقد تحصَّل لدينا السبيل إلى التوحيد والعدل على الوجه الأتم. وكان لنا من هذا السبيل الوقوف على أرض الاعتدال الأكمل لنميّز وجه اللطف والتدقيق بين الإفراط والتفريط وبين الجبر والتفويض، وبين القضاء والقدر.

والأمر بين الأمرين هو نفسه ما قيل في معنى الصراط والميزان والحكمة البالغة. وهو نفسه كذلك، الأمر الوسط الذي تتجلى فيه مكارم الأخلاق كغاية عليا للشريعة المقدسة.

وأنى تكن صفات المكارم ونعوتها، فقد كثرت الأحاديث في تحقيقها وبيان حدّها وتعريفها، إلا إنّها آيلة إلى الغاية من الإيجاد الإلهي للإنسان. وإلى هذا، ما كان للنبي الخاتم أنْ يعين مبدأ بعثته المقدسة ومنتهاها بمكارم الأخلاق، لولا ارتباطها بالغرض الأصلي من إيجاد الإنسان. فلو تقرر أنّ الغاية الإلهية من إبداع النوع الإنساني إستخلافه في الأرض، عرفنا العلّة الأصلية من وراء خلقه، وهي معرفة الخالق. وباصطفاء محمدﷺ نبيًا خاتمًا، وهاديًا، ورحمة للعالمين، يكون قد خَتَمَ سبحانه شريعته في العالمين وتمَّمها بمكارم الأخلاق. ثم لتستأنف من بعد المصطفى ﷺ حركتها الهادية عبر ورثة الحقيقية المحمدية من أئمّة الهدى وصولًا إلى الحجة البالغة.

يقتبس المحدِّث الحسن بن محمد الديلمي عن الإمام محمد الباقرؑ، وهو الإمام الخامس في سلسلة أئمة أهل البيت ؑ ما يفصِّل الأركان التي تنبني عليها مكارم الأخلاق النبوية قوله: "إنّ من آداب المؤمن حفظ الأمانة، والمناصحة، والتفكر، والتقية، والبر، وحسن الخلق، وحسن الظن، والصبر، والحياء، والسخاء، والعفة، والرحمة، والمغفرة، والرضا، وصلة الرحم، والصمت، والستر، والعفة، والرحمة، والمغفرة، والمواساة، والتكريم، والتسليم، وطلب العلم، والقناعة، والصدق، والوفاء، والعزم، والنصفة، والتواضع، والمشاورة، والاستقامة، والشكر، والحياء، والوقار". ثم ذكر الخصال التي يجب على المؤمن تجنّبها، وهي: "البغي، والبخل، والدناءة، والخيانة، والغش، والحقد، والظلم، والشره، والخرق، والعجب، والكبر، والحسد، والغدر الفاشي، والكذب، والغيبة، والنميمة، والمكايدة، وسوء الظن، ويمين البوار، والنفاق، والمنّة، وجحود الإحسان، والعجز، والحرص، واللعب، والإصرار، والقطيعة، والمزاح، والسَّفَه، والفحش، والغفلة عن الواجب، وإذاعة السر"[1].

سنجد في الحكمة المتعالية للحكيم الإلهي صدر الدين الشيرازي تأصيلًا إماميًا للحديث النبوي: "إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". جاء فيه ما يلي: "وكما أنّ للإنسان صورة ظاهرة، حسنُها بحسن الجميع واعتداله، وقبحها بقبح البعض فضلًا عن الجميع، وكذلك صورته الباطنة فإنّ لها أركانًا

لا بد من حسن جميعها حتى يحسن الخلق وتحصل الحكمة والحرية. ثم وضع لها أربعة معانٍ هي: قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العقل، فإذا استوت هذه الأركان الأربعة التي هي مجامع الأخلاق التي تتشعب منها أخلاق غير محصورة اعتدلت وتناسقت وحصل حسن الخلق. أما قوة العلم فأعدلها وأحسنها أنْ تصير بحيث تدرك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأعمال، فإذا انصلحت هذه القوة واعتدلت من غير غلو وتقصير، حصلت منها ثمرةٌ هي بالحقيقة أصل الخيرات ورأس الفضائل وروحها. ومعنى حسن الخلق في جميع أنواعها الأربعة وفروعها هو التوسط بين الإفراط والتفريط، والغلو والتقصير، فخير الأمور أوسطها وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. ومهما انحرف بعض هذه الأمور عن الاستقامة إلى أحد الجانبين لم تتم مكارم الأخلاق. وممّا يجب أن يُعلم في هذا المقام أنّ قوة النفس غير شرفها كما أشير إليه وكلّ منهما قد يزيد في الآخر، وقد يتفق لوازمها. أما إنّ كلًّا من شرف النفس وقوتها قد يزيد على الآخر فلأن الشجاعة مثلا قد تصدر لكبر النفس واحتقار الخصم واستشعار الظفر به، وقد تصدر لشرف النفس والترفع عن المهانة والذلة، حيث النفوس الشريفة تأبى مقارنة الذلة، وترى حياتها في ذلك موتها، وموتها فيها حياتها"[٢].

٢ – في فهم ما يُقصد من تتميم مكارم الأخلاق

نرانا لا نجد من فصل بين ختم النبوّة وتتميم مكارم الأخلاق في محضر البحث عن معنى ومقاصد قول النبي ﷺ في الحديثين الشريفين: "**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**"، و"**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ**". الحديثان متصلان ومتلازمان ويؤلفان وحدةً قوليةً لا تباين في وحدتها. فالنبي من حيث هو خاتم النبوة هو فاتح الولاية، لجهة أنّ الختم والفتح مرتبتان إلهيتان تنتظمان حقيقة البعثة المحمدّية، في مستهلها وختامها. وعلى قاعدة الإتصال والتلازم بين ختم التشريع وفتح الولاية تتحول الولاية إلى (نبوّة عامة) تستأنف حقائق (النبوة الخاصة)، وتنقلها إلى حقيقة هادية للعالمين. ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾[الأنبياء-١٠٧].

ها هنا تستوى لدينا الخطوط المؤسسة لواحدية النبوة والولاية. فالنبيّ الخاتم هو الولي الفاتح. وهو جامع الحقائق الإلهية والحقائق الكمالية الإنسانية في آن. وهذا هو ما يصطلح عليه أهل

الحكمة بـ (الحقيقة المحمدّية). فلهذه الحقيقة المحمدية – كما يبيّن الشيخ ابن عربي – الفردية الأولى؛ ومن هذه الفردية تفرعت الفرديات في جميع المراتب المعنوية والروحانية والإلهية والكونية وغيرها. ويقول: "إنّما كانت حكمته ﷺ فردية؛ لأنهّ أكمل موجود في هذا النوع الإنساني، ولهذا بُدِئ به الأمر وخُتم، فكان نبيًا وآدم بين الماء والطين، ثم كان بنشأته العنصرية خاتم النبيين". ثم كانت له الفردية الجامعة بين البدء والفاتح والختام الواضح ونبوّة روحانيته بالكمال الراجح"[٣].

وبهذا المعنى لا تعود مكارم الأخلاق مجرّد رتبةٍ أو طورٍ في البعثة النبوية، وإنّما هي وعاء لا متناهٍ يشمل النبوّة والولاية معًا. فالختم هنا داخلٌ في التميم دخول الكلّ في الكل. ثم ليغدوا معًا شأنًا واحدًا في حقيقة إلهية جامعة. فالأخلاق متضمنة الشريعة، والشريعة متضمنة مكارم الأخلاق، حتى ليمسي هذا التضمين المتبادل إعرابًا بيّنًا عن وحدة مقاصد الغيب في البعثة المحمدية الشاملة. إذن، فنسبة مكارم الأخلاق إلى الشريعة المختومة، هي كنسبة الحقيقة إلى الشريعة. كلاهما يستبطن الآخر ويدل عليه. فالمكارم هي العطاءات التي تقدمها الشريعة لتبلغ تمامها، ثم لتعود تلك العطاءات لتغذيها باللطف والتسديد والتأييد وجمال التدبير. وبهذه المنزلة التي لمكارم الأخلاق يعرج الآخذ بالشرع من مقام الإقرار بالتوحيد إلى مقام التصديق به. وبمثل هذا العروج يتحقق المصدِّق بمكرمة الصدق التي تشكل الفتح الأعظم باتجاه التوحيد الأكمل. فلو أفلح المتخلِّق بالصدق بلغ القرب، ولو بلغ القرب كانت له الولاية، وحظي قدر سعته من علم الكتاب، ثم ليندرج بحق في منازل الحقيقة المحمدّية.

ولكي نتبين مقام الصدق في تحصيل التوحيد الأتم، تزودنا الآيات والأخبار بما لا حصر لفضائله. فهو أشرف الصفات التي على الموحِّد الأخذ بها لتصديق توحيده. والمخاطبة الإلهية صريحة في هذا المقام:

- ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب-٢٣].
- ﴿ **اتَّقُوا اللهَّ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة-١٢٠].
- ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ [الحجرات-١٥].

- ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا** ﴾[البقرة-١٧٧].

وقال الرسول ﷺ: "تقبَّلوا إليّ بست أتقبّل لكم بالجنة: إذا حدّث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا أُئتمن فلا يخن، وغُضُّوا أبصاركم، وكفُّوا أيديكم، واحفظوا فروجكم". وقال: "إنّ الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقًا"، وقال: "لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك شيء اعتاده، ولو تركه لاستوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته"، وقال ﷺ لبعض أصحابه: "انظروا إلى ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله، فالزمه.. فإنّ عليًا عليه السلام إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله بصدق الحديث وأداء الأمانة"[٤].

والصدق – كما ينظر إليه العرفاء – على ثلاثة أركان بعضها من بعض: صدق النية، وصدق اللسان، وصدق العمل. وهذا التقسيم الثلاثي لمعنى الصدق مبعثه الإيمان الأعلى المسدد بالتخلّق. فأمّا صدق النية فهو أنْ يبديها القلب خوف عقاب، أو رجاء ثواب، ولا يريد الصادق بصدقة غير الله عزّ وجلّ. فإنّها بذلك حاصل يقين لاشِيَةَ فيه، بأنّ الحق يرى المضمرات ويعاين الضمائر المستترة. وصدق اللسان، فهو أنْ يطلقه إذا قام له شاهد من الحقّ، وكان التخلّف عن اللفظ وهنًا في صدقه. وهذا أيضًا عين التخلّق؛ لأنّ بوح الصادق ممسوكٌ بالتقوى، فإنّه لا يتلفظ بعبارةٍ ما لم يكن على درايةٍ بموافقتها الشيء المصدّق له.

وأمّا صدق العمل فيقوم على الإقبال الطوعي على ما عزم عليه بترك روح النفس، حتى يصير إلى ما عزم عليه من العمل، فيتمُّه بالحرص عليه، والانكماش، لا يقطعه عنه قاطع ولا يمنعه عنه مانع. وأصل صدق العمل عائد إلى فعلية التخلّق، حيث تصير الأخلاق الفاضلة بالنسبة لفاعلها ملكةً راسخةً في نفسه الفاضلة. ومتى صارت كذلك حثّت صاحبها على المجاهدة لبلوغ مقاصدها حتى لتزيده مشقة المجاهدة حرصًا على المضاعفة[٥].

ولمّا أنْ استوت مكارم الأخلاق على ما مرّ من أركان الصدق، فلا مناص لها لكي يترسخ استواؤها في نفس المتخلّق من اقتران العمل بالعلم. فإنّ أصل الصدق العمل به فضلًا عن التعرّف إليه. أي تعرّف الصادق على مكرمة الصدق بما هي مظهر من مظاهر التوحيد. فإنّ أصل الصدق المعرفة. لأنّك لا تصدِّق إلا من تعلم أنّه يراك ويسمعك، وهو قادر على

عقوبتك، وعلمك أنّه لا ينجيك منه إلّا الصدق له. فوقع حينئذٍ الصدق ضرورة. فالمعرفة أصل الصدق، والصدق أصل لسائر أعمال البر، وعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر. ومن قلة المعرفة بقدر الصدق ومنافعه ومواريثه وضعف اليقين. فإذا ضَعُفَ اليقين وَهْن الصدق، وقلت الرغبة، فلم يحتمل مؤن الصدق لما غُيب عنه من عذوبته، وقد قال تعالى: ﴿ **فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ** ﴾ [محمد-٢١] فضمن لهم الخير بالصدق(٦).

ومن أجل هذا، صح القول: إنّ الصدق متى كان ثمرة التخلّق المتصل بالإيمان الأعلى، صار لصاحبه مقامًا، وحصيد هذا المقام الإخلاص، والإخلاص نظير القرب، ونظير القرب مقام العبدانية، وهو مقام الأنبياء والأوصياء والأولياء المقربين. وعلى هذا المقام استوى الصادق الأمين محمد بن عبد الله ﷺ فكان له من الرب شهادة العبد ﴿ **إنّك لعلى خلقٍ عظيم** ﴾، فقد نال النبي الأكرم لعظمة خلقه أعلى مراتب الدنو من الحضرة المقدسة. ﴿ **وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى *ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى *فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى *فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى *مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى** ﴾. [النجم-٧-٨-٩-١٠-١١].

لقد درج أغلب المفسرين على عدّ الآية الكريمة: ﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [**النحل - ١٢٥**]، تذكر طرقًا ثلاثة للدعوة على وجه العموم هي: (الحكمة) و(الموعظة الحسنة) و(المجادلة الحسنى)؛ وهذا التقسيم يوافق نظرتنا الى العقل، ذلك أنّ العقل عندنا على مراتب ثلاث: أعلاها (العقل المؤيّد) الذي يختص به صاحب الحكمة، وأوسطها (العقل المسدد)، ويختصّ به صاحب الموعظة الحسنة، وأدناها (العقل المجرد)، ويتميز به صاحب المجادلة الحسنة٢(٧)، إلا أنّ الدعوة إلى إحياء أخلاق الإسلام، وهي دعوةٌ خاصة، لا تكون إلاّ بالعمل، ويكون العمل في مرتبة الحكمة وصفًا قائمًا بصاحبها، أي حالًا دائمًا له، ويكون في مرتبة الموعظة الحسنى فعلًا حاصلًا لصاحبها من غير دوام؛ أما المجادلة الحسنى، فلا عمل فيها، إذ هي تجريد محض، فلا تكون طريقًا مستقلًا في الدعوة إلى رجوع الإسلام، وإنّما هي وسيلةٌ يستعان بها في بيان الحكمة والموعظة الحسنى أنفسهما متى وقع الاعتراض عليهما؛ وقد أشار

فخر الدين الرازي في التفسير الكبير إلى إمكان قصر الدعوة على الطريقتين الأولين من غير أنْ تكون نظرتنا إلى (المجادلة الحسنى) هي عين نظرته إليها، إذ حملها على المعنى الخاص المنقول عن اليونان، وهو (الإلزام والإفحام)، ونحن نحملها على معنى (العقل المجرَّد) في عمومه؛ وسنرى في موضعه كيف أن كثيرًا من الدعاة اليوم انتهوا إلى حصر الدعوة في المجادلة الحسنى باتباعهم طريق التجريد فيها، تأثرًا بمسلك خصومهم، فارتكبوا بذلك خطأين: أحدهما أنّهم جعلوا ما ليس طريقًا في الدعوة إلى عودة الإسلام طريقًا فيها؛ والثاني،أنّهم استغنوا به عن غيره ممّا هو أولى أنْ يكون طريقًا في هذه الدعوة.

وما يستظهره الأدب العرفاني من مقاماتٍ ومدارج لأرباب السير والسلوك يفضي الى التموضع في مقام الأخلاق. فهو المقام الجامع للمقامات العرفانية على الحملة كما تفصح المرجعيات المعجمية للأدب العرفاني. نقرأ- على سبيل المثال- في الرسالة القشيرية[٨] بيانات عن تسعة وأربعين مدرجًا ومقامًا تشكل بمجموعها المراتب التي ينبغي أنْ يقطعها العارف للوصول الى مقام مكارم الأخلاق وهي: التوبة – المجاهدة – الخلوة والعزلة – التقوى – الورع – الزهد – الصمت- الخوف – الرجاء – الحزن – الجوع وترك الشهوة- الخشوع والتواضع – مخالفة النفس – ترك الحسد – ترك الغيبة – القناعة – التوكل – الشكر- اليقين – الصبر – المراقبة – الرضا – العبودية – الإرادة- الاستقامة – الإخلاص – الصدق – الحياة – الحرية – الذكر – الفتوة- الفراسة – الخلق – الجود والسخاء – الغيرة – الولاية – الدعاء – الفقر – التصوف – الأدب – أحكام السفر – الصحبة – التوحيد – الخروج من الدنيا – المعرفة بالله – المحبة – الشوق – حفظ القلب – السماع[٩].

لعل أوّل وصف وحياني للنبي هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **وإنّك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم-٤]. وعن العارف بالله أبي علي الدقاق أنّ الله تعالى خصَّ نبيه ﷺ بما خصّه به، ثم لم يثنِّ عليه بشيء من خصاله بمثل ما أثنى عليه بخلقه. وقال الواسطي: وَصَفَه تعالى بالخلق العظيم؛ لأنّه جاد بالكونين، واكتفى بالله تعالى، وقال أيضًا: "الخلق العظيم ألّا يخاصِم ولا يخاصَم من شدة معرفته بالله"[١٠]. وفي شرحه لقوله تعالى: ﴿ **وثيابك فطهِّر** ﴾ [المدثر-٤] يقول

الحسن البصري بأنها تعني: "وخلقك فحسّن"[١١]. ولما كانت صفة الإنسان الأكمل مخصوصة في إيمان المسلمين بالنبي محمد بن عبد الله ﷺ، فذلك يعني أنّ نبوّته الخاتمة هي علمٌ متفرِّد بذاته تنزَّل عليه وحيًا ليهتدي به الناس الى الحق في دنياهم وآخرتهم.

٣ - مكارم الأخلاق بين النبي الخاتم والولي الخاتم

من مكارم الله تعالى على العالمين أنْ خصَّهم بالنبي الخاتم وورثته من الأوصياء والأئمة والعلماء الربّانيين. وذلك لكي يبين لهم الحجة البالغة التي بها يدركون سعادتهم الدنيوية وخلاصهم الأخروي. والحجة البالغة هي المقصد الأعلى للنبوّة الخاتمة التي قال النبي الأكرم فيها بأنها تمام مكارم الأخلاق. ولئن كانت الحقيقة المحمدية هي الترجمة الإلهية للتطابق بين سُنّة التكوين وسُنّة التشريع، فتمام مكارم الأخلاق إنّما هو حاصل هذا التطابق المفضي إلى وحدة الغيب والشهادة. وتحقق هذه الوحدة، قيامُ الأوصياء والأولياء بعد ختم النبوة بمهمة إستكمال رسالة الوحي في التاريخ البشري وإعمار الأرض على نصاب القسط والعدل. فالسعادة التامة الخالصة – كما يبيِّن الحكماء - هي مهمة يتولاَّه أهل القرب من الحضرة الإلهية. وهؤلاء هم الذين جمعوا صراط التكوين إلى صراط التشريع، فكانت لهم مكارم الأخلاق نقطة الجمع والإلتقاء لينجز الله بوساطتهم سعادة الدارين. ولما كان الصراط التكويني هو الهندسة الإلهية الكلية لنظام الكون، وهو النظام الحافظ للوجود والمحيط بكل شيء، فإنّ الصراط التشريعي هو الوحي الذي تنزل على قلب النبي وظهر في قوله وعمله، لينتظم حياة الإنسان ويبيّن له الحدود الفاصلة بين الخير والشر، وبين الجميل والقبيح. ولأنّ الصراطين يعودان إلى أصلٍ واحد، هو وحي الله إلى نبيه الخاتم، فقد تجلّى هذا الأصل بالختم والفتح معًا. فهو ختم للنبوّة الظاهرة. وفتح للنبوة الباطنة وهو الولاية الحافظة لأمر الله ووحيه وسنّة نبيّه، وهي المتمِّمة من بعده مكارم الأخلاق التي بعث من أجلها.

يجمع العلماء الربانيون على أنّ الولايةَ تظهير مستأنف لباطن النبوة. وبهذا التظهير تكتمل الهندسة المعرفية التي تترجم الحضور الإلهي في الزمن البشري. ولئن كان الاستئناف دالًا على حركة بعد توقف لغةً واصطلاحًا، فهو في جدلية العلاقة بين النبوة والولاية يتخذ معناه

الخاص، ليشير إلى التواصل الباطني الذي ما انفك برهة عن الفعل. فَمَثَلُ هذا التواصل كَمَثَلِ حركة في الجوهر تنتظر من يدفعها الى الظهور لتقوم بمهمة توصيل معارف الوحي ومقاصد الشريعة الى الأفهام على امتداد الأزمنة المتعاقبة. ولما ذهب الأئمّة عليهم السلام وتبعُهم أكابر العرفاء إلى الأخذ بهذه الحقيقة، فقد كانوا على يقين لا شبهة فيه، من أنّ حقيقة الإيمان بالتوحيد يعادل الإقرار بالولاية، وأنّ التوحيد والولاية أمران لا ينفصلان، وأنّ الولاية هي الدليل على تجلّي الأسماء والصفات والأفعال الإلهية في كل طور من أطوار التوحيد.

تبعًا لما ذُكر تكون الولاية عنصرًا ذاتيًا من عناصر ختم النبوة. فالولي هو خليفة النبي، ومبيّن الشريعة من بعده، وهو الذي يتولّى صيرورة الدين الخاتم بعد ارتحال نبيّه إلى غاياته ومقاصده. بل إنه يؤكد بتبنّيه لأحكام الدين، استمرار الصلة بعالم الغيب في عهد انقضاء النبوة. ولأجل ذلك تحظى الوراثة النبوية التي للولي والوصي بدور حلقة الوصل بين الحق والخلق.

والتأسيس الرحماني للولاية، حاضر بالمجمل في الخطاب الإلهي: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[المائدة- ٥٤] وفي التفسير أنّ الولاية هي لله بالأصالة، وللرسول وللمؤمنين بالتبع. فيكون التقدير كما في التفسير: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ**﴾. ليكون في الكلام أصل وتبع. ولا يخفى على المتأمل أن المآل واحد"[١٢].

ولما كانت الولاية واحدة ذات مراتب وفقًا لمبدأ التراتب الطولي القرآني، فلسوف تكتسب منازلها المتعددة صفة الأصالة المُفاضة عليها من لدن الولي الأعظم تعالى.

وتبعًا للإخبار الإلهي في ما جاءت به آية الولاية، سنكون أمام هرم وجودي يتوقف على فهمه وإدراك معانيه، عرفان جميل صنع الله ولطفه بخلقه.

من هذا النحو تتمظهر منازل الولاية على ثلاث مراتب وجودية هي: ولاية الله – ولاية النبي – ولاية الولي.

المرتبة الأولى – ولاية الله: وهي الولاية الحقيقية المطلقة، وتكون بالأصالة للولي الواحد الأحد على العالمين. وفي القرآن المجيد من الآيات البيّنات ما يشير إلى الأصالة الإلهية لولاية الله. وإنّ الله تعالى سمّى ذاته المقدسة بالولي؛ لأنّه المهيمن بأسمائه وصفاته على كلّ شيءٍ كما في

قوله تعالى: ﴿ **مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا** ﴾[الكهف- ٢٦]. وقوله: ﴿ **أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ** ﴾[الشورى- ٩]. فالولاية له تعالى خاصة على الناس أجمعين، وهو الذي يعين للناس من يتولّى أمورهم.

المرتبة الثانية - ولاية النبي: وهي من الله. أي إنّها امتدادٌ لولايته تعالى ومن أمره، ولأنّ ولايته تعالى محيطة بكلّ شيء، ومدبّرة لنظام الخلق، وبسُنَنِها تنتظم هندسة الكون، فولاية النبي الخاتم ﷺ المستمدة من الرحمانية هي - بهذه الصفة الاستمدادية - ولاية للعالمين. ولكونها كذلك، فهي ظهورٌ لمشيئة الله وإرادته في عالم الإنسان: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [**الأنبياء- ١٠٧**]. فهي إذن رسالة لجميع الناس وولاية الرسول حاكمة على العالمين، ومظهرةٌ للدين القيّم. كما في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** ﴾[**سبأ- ٢٨**].

المرتبة الثالثة - ولاية الولي: وهي متصلة بالولايتين الأولى والثانية، وبها تتجلّى الحقيقة المحمدية في عالَمي الغيب والواقع، ومن خلالها يكشف الحق عن عنايته بشؤون الخلق. فإنّ أولياءه هم المكلَّفون بالمعاينة والمتابعة وحفظ الكتاب. وولاية الولي مصرّح عنها في القرآن الكريم بوجود شاهدٍ على المسلمين يتلو رسول الله: ﴿ **أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ** ﴾[**هود- ١٧**].

ومعنى (يتلوه) أي يخلفه، ومعنى خلافته له هو قيامه مقامه في كلّ شيءٍ ما خلا النبوة التي ختمت به ﷺ. ولقد عين الله سبحانه هذا الشاهد بالإشارة والوصف، فوصفه تارةً بأنّه من رسول الله كما في الآية. ووصفه تارةً أخرى، بأنّ عندَه - أي الولي - من عندِه (جلّ شأنه) علم الكتاب كما في الآية: ﴿ **قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾[**الرعد- ٤٣**]. وبهذا التقدير الإلهي سنجد كيف يحدد القرآن الكريم الإطار المعرفي لحركة الإنسان في الزمان التاريخي. وهو ما تظهره الآية: ﴿ **يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[**النساء- ٢٦**].

وإذا كانت المعرفة البشرية قد وضعت فهم التاريخ وحركته ضمن جدالية الحرية والضرورة، فقد انطوت الآيات على قوانين مقدّرة في إطار السنن الإلهية الكلية التي لا تقبل التبديل والتحويل.

من أجل ذلك لاحظنا كيف أنّ الآيات تختزن المقاصد الإلهية في البيان والبرهان والتعليم والتنبيه والتبشير والإنذار. وهذه المراتب كلّها على الجملة تجتمع في المقصد الأعلى الذي هو الهداية بمكارم الأخلاق. وبهذا نستطيع فهم مندرجات التدخل الإلهي في تاريخ الخلق. وهو تدخل يقوم على الدعوة إلى إدراك الواقع بما هو واقع، مثلما يقوم على الحثّ الإلهي نحو تغيير هذا الواقع.

وقد يكون الوجه الأكثر دلالةً وعمقًا للتدخل الإلهي هو الاعتناء والتدبير واللطف. فالدعوة الإلهية إلى التغيير التاريخي غير مقصورة على توفير عامل القوة لدرء الفساد في الأرض، وإنّما أساسًا على دعوة الإنسان إلى إجراء مراجعة أخلاقية معرفية في عالم المفاهيم والأفكار والثقافة التي يحملها. كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [**الرعد- ١١**]. وما ذاك إلّا لأنّ النقلة الحضارية من دائرة الفساد إلى فضاء العمران لا تبلغ غايتها من دون سياق تفكيري وسلوكي وأخلاقي يناسب ما قصدته الآية الكريمة: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ .[**محمد- ٧**] كما لو أنّ ثمّة تقابلًا شرطيًا بين الانتصار لله والانتصار للخلق١[١٣].

ولما كان الأمر كذلك، فإنّ مقتضى هذا التقابل الشرطي يكون في تحصيل التناسب بين إرادة الفاعل واستعداد القابل. وما ذاك أيضًا إلّا لأنّ التناسب والقيام على الصراط هو الذي ينجز العروة الوثقى بين الرب والعبد. فلو تعقل العبد اجتماعه وقانون الزمن الذي هو فيه، وعمل وفقًا لأحكام الشريعة المقدّسة، وكان من المتقين، لقابَلَه الشارع الأعظم بالاستجابة وسدّد أعماله وأيّده بالنصر.

٤ – تمام التخلُّق الرجوع إلى المبدأ

منتهى معراج المتخلِّق الواصل في رحلة التكليف لإصلاح عالم الكثرة، هو العودة الى المبدأ. وما دام كلّ أمرٍ متعلق بتوحيده تعالى فلا مناص من الرجوع اليه في كل شأنٍ متعلقٍ بتدبير الاجتماع الإنساني. وهو ما يبيّنه الموحّدون في قولهم: "إنّ النهايات هي الرجوع الى البدايات". وهذا القول يترجم أصل الميل والعشق لكلّ مخلوقٍ للرجوع الى أصله ومبدئه. وبعبارةٍ أخرى هو أصل عودة كلّ غريب الى وطنه. ويعتقد الأولياء أنّ هذا الميل الى المبدأ يشمل كلّ ذرات الوجود ومنها الإنسان، ومهمة التكليف الإلهي تظهير هذا الاعتقاد من خلال الإرادة والعزم

على أداء المهمة. والإرادة عند الأولياء تعدّ أول منازل السير الى الله عبر إصلاح شؤون الخلق. فلا فصل بين عبادة الحمد والتنزيه لله الواحد الأحد الصمد، وبين فعلية العبادة في الاجتماع الانساني. حيث تتمظهر اسماء الله وصفاته وأفعاله كشواهد وموازين في أعمال الناس وتجاربهم. وعلى هذا يجد السالك إلى الحق بمكارم الأخلاق، إنّه أمام مقتضيين، ينبغي له الأخذ بهما وهو يمضي في مسار التكليف:

ـ المقتضى الأول هو الخطاب الإلهي، وقوامه أنْ يعلم أنّ الحق يخاطبه في كلّ شيء، وأنّ هذه المخاطبة مستمرة باستمرار حياته، وأنّ نص هذا الخطاب إنْ حُفِظَ رسومًا في الصحف المطهرة، فمعانيه مودعة في نفس المكلف وفي الأكوان من حوله: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت- ٥٣]. وأنْ يعلم هذه الأكوان ما قامت ولا استقامت إلّا بهذه المعاني الإلهية التي على المكلف واجب طلبها، والتعرف عليها والتقرب بها إلى حضرة الله.

ـ المقتضى الثاني هو الرؤية والمراقبة، ومؤداهما أنْ يعلم المكلف أنّ الله يراه رؤية لا تنقطع، وأنّ هذه الرؤية، إنْ جاءته بالرضى عن أفعاله سعد سعادةً لا يشقى بعدها، وإنْ جاءته بالسخط شقي شقاوةً لا يسعد بعدها، وبذلك فهو مطالب بأنْ يراقب نفسه ويراقب الله في كلّ أفعاله.

ومن هذين المقتضيين الإجماليين، تتفرع ثلاثة مقتضيات تفصيلية تفترضها شروط العمل في ميادين التجربة التاريخية وهي (الاشتغال بالله)، و(التعامل مع الغير). و(التفاعل مع الاشياء او مع سائر الموجودات).

ـ في المقتضى الفرعي الأول يدرك المكلَّف أنّه مخلوق للاشتغال بالله، وأنّ الاشتغال بغيره ينبغي أنْ يذكره بالله دائمًا وأبدًا. فما يعقل المكلف شيئًا إلّا ويجعله هذا الشيء يعقل أمر ربّه فيه.

ـ في المقتضى الفرعي الثاني، أي التعامل مع الغير، فإنّ المكلَّف يأتي أعمالًا لصالحه يبنيها على اعتقاداته مُقِرًّا لغيره في ذات الوقت بحق الاتيان بمثل هذه الأعمال الصالحة، وبحق توجيهها بما عنده من اعتقادات، كما يرتب المكلَّف هذه الأعمال جميعًا بحسب ما يقتضيه الصالح العام.

ـ أما الثالث فهو مقتضى التفاعل مع الأشياء. ففيه يتجّه المكلَّف الى الموجودات من حوله قصد إرضاء حاجاته المشروعة، وحفظ حياته المادية، فيفعل فيها ويتصرف بها بحسب هذه

الأهداف، كما تفعل فيه هذه الموجودات هي الأخرى، وتؤثر فيه بما يوافق هذه الأهداف أو يعارضها ـ فتقوم بينهما علاقات الأخذ والعطاء والتأثر والتأثير[١٤].

بذلك تدخل مكارم الأخلاق دخولًا بيِّنًا في صميم هذه المقتضيات، سواء ما تعلق منها بالمستوى الإجمالي لجهة صلة المكلف بالحق الأول، أم ما يتعلق منها بالمستوى التفصيلي لجهة صلة المكلَّف بمنعطفات وتعقيدات وشواغل الاجتماع البشري.

يكون تمام مكارم الأخلاق إذن، بالتوحيد الخالص؛ ولذا فلا مناص لبلوغ التوحيد الحق من اتبِّاع الأدب الخالص مع الله تعالى. فلو عرفنا أنّ أصل العبادة حسن التأدّب، وختامها حسن التخلّق، سوف نهتدي إلى التعرف على مسار النبوات والعلل الإلهية التي حكمت اصطفاء النبيين. فلمّا أنْ تحقَّق النبي الخاتم بالأدب التام الخالص بلغ سدرة المنتهى، وكان من العرش قاب قوسين أو أدنى. فعلم نفسه وحقيقة نبوته بتأديب المولى الأعلى فكان قوله ﷺ: (أدّبني ربّي فأحسن تأديبي)[١٥]. إذن، فبمكارم الأخلاق التي بُعث بها النبي، وبها ختم تاريخ الأنبياء والرسل، فُتح السبيل لمعرفة الله تعالى، وكان محمد بن عبد الله ﷺ ومعه آله وأوصياءه مثالًا للإنسان الكامل المتحقِّق بجميع النعوت الإلهية الكمالية. فقد منَّ الله على النبي الخاتم بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) التي تحوي جوامع الكلم، ومكارم الأخلاق معًا. من أجل ذلك قال ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"؛ لأنّ مكارم الأخلاق محصورة في الحقيقة الإنسانية الجامعة. وهذه الحقيقة هي التي يعبر عنها أهل الحق بالحقيقة المحمدية، حيث تكون جميع النشآت الوجودية ظهورات لهذه الحقيقة ويكون العالم صورة حقيقتها الجامعة. وبالتالي فإنّ جميع المظاهر من العقل الأول والروح الأعظم إلى الهيولي الأولى، إنّما هي رقائق لهذه الحقيقة، وبهذه الجامعية استحقت الخلافة.

ولما كانت للإنسان الكامل الظاهر في كل شيء، ظهورات وتدليات وتجليات في كلّ شيءٍ كان أول ظهوره في العقل الأول؛ ولذا قال ﷺ: "أول ما خلق الله نوري" وتلك إشارة منه إلى أنّ العقل حسنةٌ من حسناته ومكرمةٌ من مكرمات الله عليه. وبالجملة فإنّ هذا الإنسان يسري في جميع الموجودات؛ ولذا قال علي عليه السلام: "أنا القلم وأنا اللوح"، وقال في موضع آخر: "كنت مع

الأنبياء سرًا ومع محمد جهرًا" وأما سر معيّته ﷺ مع الأنبياء سرًا ومع محمد جهرًا- كما يقول صاحب الحكمة المتعالية- فيعود إلى أنّ جميع الأنبياء كانوا من مظاهر وجوده، وكانت ولايتهم من شعوب ولايته وفروعه، وهو الظاهر في وجودهم، والظاهر مستور في المظهر، وإنْ كانت نفسه الزكية من مظاهر ولاية خاتم الأنبياء(١٦).

ولأنّ الحقيقة المحمدية هي نفس النبيّ مذ كان آدم بين الماء والطين كما في الحديث الشريف، فإنّها متجليةٌ في الأنفس المتسلسلة من آله المعصومين. الذين بهم تدوم الحقيقة المحمدية بمكارمها الجامعة، ثم ليفيض الله تعالى على العالم بواسطتها على العالمين بالرحمانية والرحيمية معًا.

من هاتين الرحمتين تسري مكارم الأخلاق على الفرد والجماعات، مثلما تسري على الأمم والحضارات المتعاقبة. وما في القرآن الكريم من البيّنات بصدد الاختلاف والتنوع وتكثُّر طرق معرفة الحق من خلال الأديان رسالات الوحي، ما يفضي الى بيان سلسلة الوجود وصولًا الى المصدر الأول والحق الأول. بحيث يغدو التكثُّر عين الحقيقة الواحدة في الأصل الإنساني، ذلك أنّ الاختلاف في الألوان والأعراق والألسن والثقافات والأديان هي من آيات الله وسُنَنه في الخلق؛ ولذلك كانت مكارم الأخلاق التامة غاية النبوة الخاتمة، وخاتمة الولاية المحمدّية المطلقة في العالمين.

متى عرفنا أنّ الأساس الأخلاقي في الإسلام مرجِعُه مبدأ التوحيد، أدركنا الغاية الإلهية القصوى من ختم النبوَّة. أي كمال الدين، حيث يستوى حضور الإنسان في حركة الزمن على نصاب الاعتدال بمكارم الأخلاق. وبهذا الاستواء المتحقِّق بنبوة رسول الإسلام ﷺ يفتح الله بالشريعة المقدسة هداية البشرية، ويؤيِّدها بالتبصُّر والتخلُّق لتبلغ سعادتها العظمى.

لقد شهدت فلسفة الأخلاق الإسلامية تأسيسات مهمة في علم المعرفة الأخلاقية. نشير في هذا المقام إلى فيلسوف الأخلاق المسلم أبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه الرازي (٣٢٠-٩٣٢م).

حدّد مسكويه الإطار الذي تعمل فيه الأخلاق ويفعل فيه المتخلّق وهو بذلك يضبط الشّروط التي تجعل من الفعل فعلًا خلقيًّا صادرًا عن الإنسان لا بوصفه إنتاجًا آخر غير ذاته، وإنّما بوصفه

فعلًا تنشئه الذّات معبّرة عن نفسها. وبما أنّ الأمر على هذا النّحو فإنّ الإنسان مجبولٌ على التّخلّق جبلّة استعداد، أو تهيّئ للفعل الخلقيّ، ولا يخرج الفعل إلى واقع الممارسة والظّهور إلاّ بالاكتساب والتّحصيل، وهنا يكون السّؤال الأوّل الذي طرحه مسكويه ضروريًّا ومبدئيًّا، أي سؤال بداية وتأسيس. كيف "نحصل لأنفسنا خلقًا تصدر به عنّا الأفعال كلّها جميلة وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة ولا مشقّة ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليميّ"[١٧].

إذا كان الأمر كذلك كما بيّنّا فإنّ مشروع التّفكير في تهذيب الأخلاق سيتعلّق بأمرين مهمّين:

-**أوّلهما**: السّؤال عن كيفيّة حصول النّفس على الخلق الحسن، أي كيف نجعل من أفعالنا جميلة؟

-**وثانيهما**: كيف يكون فعلنا الأخلاقيّ سهلًا لا كلفة فيه ولا مشقّة؟

هذان السّؤالان يخفيان أمرًا مهمًّا متعلّقًا بطبيعة الفعل الإنسانيّ (الخلق) أي الإجابة عن سؤال مهمّ خاض فيه كلّ من فكّر في الإنسان ألا وهو السّؤال عن حقيقة السّلوك المكتسب والسّلوك الفطريّ. وإنّ الخلق فعلٌ وسلوكٌ وهو ليس فطريًا؛ ولذلك يمكن التّفكير فيه على نحو يجعله ممكنًا وصادرًا عن الذّات الفاعلة بصورةٍ تلقائيّةٍ وكأنّه فعل فطريّ يعبّر عن السّجيّة والجبلّة وليس عن الاكتساب والتّعلّم. فالتّهذيب مصطلحٌ جيّدٌ وصنعه يكشف عن فطنة وحكمة، وهو أنّ السّلوك الإنسانيّ يحتاج إلى تهذيب، وهو التّعليم والتّدريب والإصلاح والتّوجيه وهو أيضًا تعلّم يحدث في الزّمان، أي زمان الفعل التّربويّ، فالتّهذيب تربيةٌ وسعيٌ إلى بناء إنسانيّة الإنسان وبناء قيمه والرّفع من شأنه في سلّم قيمه. وهذا ما يؤكّد ما كنّا قد ذهبنا إليه سابقًا لمّا أكّدنا الإنسانيّ في الإنسان. ومن ثمّ فإنّ الكشف عن شروط الفعل الأخلاقيّ وعن حقيقة الأخلاق أو الخلق لا يكون إلاّ بالنّظر في حقيقة الإنسان ما هي. وهذا ما دفع مسكويه إلى النّظر في سؤال الإنسان منذ مطلع كتابه تهذيب الأخلاق. "ولمّا كان لكلّ صناعة مبادئ عليها تبتني وبها تحصل وكانت تلك المبادئ مأخوذة من صناعة أخرى"[١٨]، فإنّ النّظر في الأخلاق والتّفكير في حقيقتها يحتاج إلى النّظر في المبادئ، والنّظر في المبادئ يحتاج إلى مجالٍ آخر من الحكمة هو الحكمة النّظريّة. فقد سبق أن بيّنّا أنّ مبادئ الحكمة العمليّة مأخوذة من الحكمة النّظريّة[١٩]. وأنّ الحكمة تكمن في تحقّقهما نظريًّا وعمليًّا.

وهـذا التّحقّـق هـو الكـمال الـذي تصبـو إليـه كلّ نفـس، "فالإنسـان يصـير إلى كمالـه، ويصـدر عنـه فعلـه الخـاصّ بـه إذا علـم الموجـودات كلّهـا أي يعلـم كلّيّاتهـا وحدودهـا التـي هـي ذواتهـا لا أعراضهـا وخواصّهـا التـي تصيّرهـا بـلا نهايـة"[٢٠]. ومـن ثـمّ يصـير العلـم بالموجـودات ضرورة يطلبهـا العقـل تحقيقًـا لتـمام الإنسـانيّة فيـه، وفي هـذا بيـان مـن مسكويه بـأنّ علـم الوجـود وإنْ كان أرقـى المواضيـع فـإنّ الغايـة القصـوى منـه إدراك الكـمال الإنسـانيّ. فمعرفـة الله معرفـة أولى ومعرفـة الإنسـان معرفـة ثانيـة لأنّ "الـذي ينبغـي أنْ نعلمـه الآن أنّ وجـود الجوهـر الإنسـانيّ متعلّـق بقـدرة فاعلـه وخالقـه، تبـارك وتقـدّس اسـمه"[٢١]. وهكـذا لا يمكـن أنْ يُطلـب علـم الوجـود إلّا ويُطلـب معـه علـم الإنسـان[٢٢].

٥-مكارم الأخلاق كهادي إلى الغيرية الرحمانية

في الخطـاب القـرآني جـاء الإسـلام رحمـة للعالمـين: ﴿ **ومـا أرسـلناك إلّا رحمـة للعالمين** ﴾[الأنبيـاء- ١٠٧]؛ مـا يعنـي أنّـه خطـاب لـكلّ النـاس عـلى اختـلاف أجناسـهم وألسـنتهم وألوانهـم وانتماءاتهـم، يدعوهـم إلى مـا فيـه خيرهـم وصلاحهـم في الدنيـا والآخـرة، لكـن مـع وجـود هـذه الدعـوة تـرك لهـم الحريـة في الاختيـار، بحيـث يؤمـن مـن يؤمن به عـن إرادة حرة، ويجحـد به من يجحد عـن تلك الإرادة أيضـا، مـن دون أن يكـره عليـه؛ مـا يعنـي أنّ الاعتقـاد بديـنٍ مـن الأديـان لا يمكـن أنْ يتم على أسـاس الاجبـار والإكـراه ولا تحـت السـلطة والعنـف، لقولـه تعـالى: ﴿ **لا إكـراه في الدين** ﴾[البقـرة- ٢٥٦] ، وقولـه – سـبحانه-: ﴿ **ولـو شـاء ربـك لأمـن مـن في الأرض كلهـم جميعًـا أفأنـت تكره النـاس حتى يكونـوا مؤمنين** ﴾[يونـس- ٩٩]. وبهـذا سـوف يـؤول الأمـر الى صنفين مـن الناس، صنـف يتّخذ من الاسـلام دينًـا لـه، وصنـف يتّخـذ لـه أديانًـا أخـرى، أو يختـار ألّا يكـون لـه أي دين.

ومـن الركائـز الأساسـية التـي يتأسـس عليهـا التعريـف بالديـن الاسـلامي والدعـوة إليـه، الحـوار مـع المختلفـين؛ ذلـك أنّ الدعـوة ليسـت عرضًـا جافًـا يقتضي القبـول أو الرفـض في صمـت، وإنّمـا هي (دعـوة حواريـة تفاعليـة)، تقـوم عـلى الاستفسـار والاسـتدلال، والقبـول والـرد، ومـا شـابه ليكـون الأمـر تدافعًـا في الـرأي ومقارعـةً بالحجـة، حتـى تسـتبين الحقيقـة لمـن يطلبهـا ويبتغيهـا، فـلا يكـون تضليـل ولا خـداع ولا تلبيـس، ولينتهـي الأمـر الى قبـول عـن قناعـة أو رفـض عـن قناعـة كذلـك.

وعندما يأخذ كلّ الموقع الذي ارتضاه عن إرادة وحرية، فإنّ الحوار لا ينقطع بين الجانبين، وإنّما يستأنف على مستوى آخر هو مستوى التعاون فيما هو مشتركٌ من الأمور المرتبطة بخدمة مصلحة الإنسان وتحقيق منفعته، بصرف النظر عن دينه ومعتقده؛ وهو حوار بقواعد تقوم على الاعتراف بالآخر واحترامه، وعلى صيانة كرامته الإنسانية من أنْ ينالها التحقير والتبخيس، أو أي ضرب من ضروب الانتهاك؛ إن معنويًا أم ماديا[٢٣].

وغنيّ عن البيان في هذا السياق أنّ "التعارف؛ باعتباره مسلكًا كونيًا، يتأسس في محدداته المعرفية الأولى على عنوان (وحدة الانسانية). وهذا المبدأ يشتق ويستمد قيمته من المبدأ الأعلى؛ أي (وحدانية الله سبحانه) بوصفه المبدأ والغاية في الوقت نفسه؛ فإنّ تكون موحّدًا معناه أنّك تعيش وضوح الرؤية في تصوّرك عن الكون والحياة، وما دامت الوحدانية صفة الله – ﷻ – وهو – سبحانه – الخالق، فلا بد أنْ تمتد صفة الوحدة الإلهية الى كلّ البشر؛ لأنّهم من خلقه"[٢٤]. وتأسيسًا على هذا، فالإسلام من حيث هو دينٌ كونيٌّ، ومن حيث هو أسبق من غيره من المذاهب والنحل في الدعوة الى العيش معًا، هو من عنده المقدرة التركيبية وإعادة المعنى والتدبير المعرفي لضوابط تدبير الاختلاف؛ لأنّ العناصر الوضعية والاصطفاءات الحصرية معوّقات لتشكل التعارف في عالم اليوم ومدعاة للتصادم والتنابذ[٢٥].

ومعنى هذا أنّ الأخذ بمسلك التعارف؛ كما رسمه الإسلام يقتضي ضوابط محددةً وشروطًا مخصوصة، بوجودها يتحقّق المقصد العام منه، وبغيابها يختل الفعل بأسره؛ ذلك أنّ التعارف المبني على التواصل والتعاون الذي تنشده الرؤية الاسلامية من العلاقة مع الآخر، يتعين أنْ يكون منضبطًا بمقتضيات قيم العدالة والمساواة والأخوة الإنسانية والحرية والوفاء بالعهود والالتزامات، وبالتالي، فإنّ أي إخلال بهذه القيم هو حكم ببطلان هذه العلاقة وفقدانها الشرعية الإلهية والمصداقية الانسانية؛ لأنّ القيم في النظرية الاسلامية لا تتجزأ ولا ينفي بعضها بعضًا[٢٦]. وإنّما هي بمنزلة منظومة تتفاعل عناصرها مجتمعه، ويؤثر كلّ عنصر ضمنها في بقية العناصر، مثلما يتأثر هو بها.

تتعذر الحياة الطيّبة في الإجتماع الإنساني في مناخٍ يسوده التوجّس والخوف من الآخر والناظرة اليه بعين الدونية والاحتقار، فليس يقدر على التعارف من ظن نفسه الافضل، أو

ليس للحياة أنموذج أسلم ولا أكمل من طريقته هو؛ فيمتنع السلوك الايجابي المتجاوب، وتتحول دواعي الاجتماع الكوني الانساني الى أسباب الافتراق والتباعد. وتبعًا لهذا، فإنّ من الضوابط الأساسية التي تعمل على توليد التعارف السليم المتوازن وتوطيده، إزالة الخوف من الآخر، ومحاولة معرفة ذاتيته في سياق الوحدوية العالمية، فضلًا عن تقاسم شرطيات الالتقاء والتذكير بها باستمرار على قاعدة السلم والسلام، والاعتقاد بأنّ مخزون البشرية قيميًا ليس محصورًا في نطاق أرضي واحد، وإنّما هو مبثوثٌ موزعٌ في جنبات الوجود العرضية جميعها[٢٧]. الأمر الذي من شأنه أنْ يخلق التحوّل الإنساني الى الكونية، بديلًا عن الموضعية والوضعية، فتتكون لدى الانسان نظرية وجود مرتبطة بالله – سبحانه – ، بوصفه خالقًا ومصدرًا للكتاب والحكمة، فتتشكل عقلية الانسان وأخلاقياته في ضوء هذا الارتباط الإلهي. ومن ثمّة يترفع هذا الانسان عن نزعته الغريزية البهيمية الدونية العابرة، ويصير مرتبطًا بمنظومة إلهي من القيم، هي نقيض التعالي في الأرض والإفساد فيها، مهما كانت المبررات النفعية، ونزعتها غير الأخلاقية، وتمركزها حول الذات الفردية.

في السياق المعرفي لجدلية التلازم بين مقاصد الشريعة ومكارم الأخلاق النبوية يبيِّن النظَّار مسلَّمتين رئيستين: مقتضى المسلَّمة الأولى للأخلاق الإسلامية أنّه لا إنسان بغير أخلاق؛ فلا يخفى أنّ الأخلاق الحسنة صفات مخصوصة الأصلُ فيها معانٍ شريفة أو قل قيم عليا؛ كما لا يخفى أنّه ليس في كائنات هذا العالم مثل الإنسان تطلعًا إلى التحقق بهذه المعاني والقيم، بحيث يكون له من وصف الإنسانية على قدر ما يتحقق به منها، فإذا زادت هذه المعاني والقيم زاد هذا الوصف وإذا نقصت نقص٣[٢٨]؛ تترتب على هذه المسلمة حقائق ثلاث، "أنّ هوية الإنسان أساسًا ذات طبيعةٍ أخلاقيةٍ؛ والثانية، أنّ هوية الإنسان ليست رتبةً واحدة، وإنّما رُتب متعددة، فقد يكون الواحد من الجماعة إنسانًا أكثر أو أقل من غيره فيها؛ والثالثة، أنّ هوية الإنسان ليست ثابتة، وإنّما متغيرة، فيجوز أنْ يكون الفرد الواحد في طورٍ من أطوار حياته إنسانًا أكثر أو أقل منه في طورٍ سواه.

أما مقتضى المسلمة الثانية فتقوم على أن لا أخلاق بغير دين؛ يكفي أنْ نشير إلى أنّ الأخلاق تَنبني على الدين بطريقين اثنين؛ أحدهما الطريق المباشر، ويقوم في تلقي خبر هذه

الأخلاق من الوحي الإلهي والتأسي فيها الرسول الذي جاء بهذا الوحي؛ والثاني الطريق غير المباشر، ويقوم في اقتباس الأخلاق من الدين مع العمل على إخراجها عن وصفها الديني الأصلي أو مع التسترِ المبيَّت على أصلها الديني كما يقوم في اللجوء إلى القياس على الأخلاق الدينية فيما يُستنبط من أخلاق وضعية.

على هاتين المسلمتين تترَّتب النتيجة المباشرة التالي: أنّه لا إنسان بغير دين، ممّا يجوز معه أنْ نعرّف الإنسان بأنّه الكائن الحي المتدين، فالهوية الإنسانية تكون في حقيقتها هوية دينية؛ فإذا قيل بأنّنا قد نجد بين الناس مَن لا يتدين أصلًا، فإنّنا نقول بأنّ هذا قول يحتاج إلى توضيح؛ ذلك أنّ المراد به هو أنّه لا يقر بأنّه يتدين بدين سماوي إلهي، لكن هذا لا يرفع، على ما ذكرنا، جواز أخذه من هذا الدين بطريق غير مباشر، محرّفًا لما أخذه أو متسترًا عليه أو متبعًا فيه طريق القياس كما إذا استبدل مكان الإيمان بالإله الإيمانَ بمطلق من عنده يقيمه بَدَلَه، عقلًا كان أو إنسانًا أو طبيعة أو مادة أو تاريخًا، إذا أصل الدين هو بالإيمان المطلق؛ ولا ينفع كذلك أنْ يقال بأنّ بعضهم لا يقول إلا بالنسبي وحده؛ ذلك لأنّ هذا البعض يكون قد جعل مطلقَه هو النسبية، فيقع في ما أنكر[٢٩]. وما من شك في أنّ هاتين المسلَّمتين تفتحان على أفق يفضي إلى الإستنارة بمكارم الأخلاق في نظم التعارف بين الأمم والجماعات والأفراد على نصاب الرحمانية.

٦- التعرُّف على الغير كمبدأ لمكارم الأخلاق

التعرُّف على الغير في عالم الإختلاف مفهومٌ أصيلٌ سابق على مفاهيم لاحقة تنتسب إليه، مثل الحوار والمفاوضة. فهذان المفهومان يعادلان الجدل المذموم الذي هو أداة هيمنة لا أداة معرفة. هو ليس الجدل الأحسن كما قرّره القرآن الكريم ليشير بـ(الأحسنية) الى التعرُّف المحمود. فهذا الأخير يختزن في داخله أفهامًا وقيمًا تؤلّف على الجملة البناء المعرفي لفلسفته، وهي بإيجاز على الوجه التالي:

أولًا – التعرُّف بما هو إرادة المعرفة بالموجود الأشرف كما تقرّره الحكمة الإلهية. والمقصود هنا الكائن الإنساني على وجه الخصوص. هذا النوع من إرادة المعرفة، قائم على مبدأ التآخي،

عن طريق متاخمة هذا الكائن قصد التعرف إليه كما هو. من دون فرض أو إكراه.

ثانيًا – التعرُّف بما هو الكشف عما هو مجهول في ذات المتعرف. إذ لا تستوي معرفة المتعرف بنفسه إلّا بالتعرف على ما هو محتجب في نفس الآخر.

ثالثًا – التعرُّف بما هو علم معاملة وفهم للغير. وهو علم التخلُّق العملي الذي ينظم الصلة بالغير، ويقيمها على التسامح والقبول والمعايشة الرحمانية.

رابعًا – التعرف بما هو إقبال المتعرِّف نحو الغير ابتغاء وَصْلِهِ على الود والإقبال والانفتاح.

خامسًا – التعرف كمقصدٍ دنيويّ وفوق دنيوي في آن:

– دنيوي؛ لأنّ المتعرِّف يروم الوصول بالسؤال والتساؤل الى فهم حقيقة الموجودات بما هي موجودات.

– وفوق دنيوي؛ لأنّه يبحث عن سر الوجود في كلّ موجود. أي العثور على السبيل الموصل الى الأصل الذي ظهر بسببه كلّ كائن. أي التعرف على الواجد، وهو أعلى مقامات العرفان. إذ تمتاز هذه الدرجة من الانهمام بالفهم أنْ يبلغ المتعرّف مقام التجلّي والشهود في الوجود.

سادسًا: التعرف بوصفه معطى إلهيًا أوجبته الأديان على مؤمنيها ليكون لهم سبيلًا للاهتداء الى الخالق عبر معرفة على مخلوقاته.

حين يتّصف المتعرف بهذه الأصول ويعمل بها، يفتح السبيل الى جعل المفهوم حركةً سارية في الحياة على نشأة العدل والتخلق الرحماني. المتعرِّف العادل المتخلّق، هو الذي يشاهد الغير في نفسه ويشاهد نفسه في الغير بعين اللحظة؛ كما لو كان هو والغير نفسًا واحدة. فلو تحقَّق له مقام الغيرية يكون قد قطع المسافة المكتظَّة بالريب حيال هذا الغير الذي هو نظير له في الآدمية. ولكي تنعقد موازين العلاقة بين الأنا والغير المختلف على نصاب التعرُّف، فلا مناص من قيامها على صفاء النية، وسمو القصد ولطف الاختلاف. وحين يأخذ التعرُّف سبيله الى حقول التنوع يثبُت الوصل بين الذات ونظيرها. حيث إنّ أفضل درجات هذا الوصل ما نشأ، ونما وسرى في متسعات الاختلاف والغيرية.

التعـرُّف إذًا، وليـد شرعـي للتغايـر. بـل هـو اسـتجابة المتعـرِّف لنـداء العلـم بـكلّ مـن يغايـره الفهـم في الثقافـة والايديولوجيـا والمعتقـد. وبقـدر مـا يتسـامى التعـرُّف عـلى العصبيـات والتحيُّـزات والهويـات المغلقـة، بقـدر مـا يتصـل بهـا جميعًـا بوصفهـا ظاهـرات اجتماعيـة، توجِـبُ النظـر إليهـا، والتعامـل معهـا كوقائـع يفترضهـا الاحتـدام الطبيعـي في عـالم النـاس. إلا أنّ فهـم التعـرّف عـلى حقَّانيتـه يفـترض تناظـرًا متكافئًـا لا رجحـان فيـه للـذات عـلى الغـير ولا الغـير عـلى الـذات. تناظـرًا لا يلغـي فيـه أحـدٌ أحـدًا، بـل الـكل موصـول بالـكل عـلى نحـو التكامـل والامتـداد في المنفسـح الانسـاني.

لمـا وضـع أرسـطو "كوجيتـو المنطـق" ربـما لم يكـن متنبّهًـا للوهلـة الأولى إلى تلـك الجرعـة الزائـدة مـن سـطوة الإيديولوجيـا عـلى دنيـا الإنسـان. راح يبـيِّن أنّ الإنسـان حيـوان راغـب بالمعرفـة، بعدمـا خلـع عليـه نعـت الحيوانيـة الناطقـة. سـوى أنّـه لم يمـضِ إلى المحـل الـذي منـه تُسـتظهر غريـزة الكائـن الاجتماعـي في مقـام تحيُّزهـا. فالإنسـان بالإضافـة إلى كونـه عاقـلًا، هـو كائـن متحيِّـز بفطرتـه إلى التسـليم بيقـين مـا والإيـمان بـه. ومـا ذاك إلا لتطمئـن نفسـه إلى نهايتهـا المحتومـة. مـن هـذا المحـل الغائـر في الأعـماق تنهـض الغريـزة الإيديولوجيـة لتجتـاح عوالمـه كلهـا. ولأنّ الإنسـان (حيـوان كسـول) كـما طـاب للحكمـة اليونانيـة أنْ تقـول، فقـد أردفـت قولهـا بتنبيـه أهـل المـدن، "إمّـا أنْ يختـاروا الراحـة وإمّـا أنْ يكونـوا أحـرارًا". ومـا انـبرى اليونـان ليتقوَّلـوا هـذا، إلّا لفتـح نافـذة للحكمـة، والتهيُّـؤ لظهـور الحكيـم. فالحكيـم وحـده مـن يظهـر إلى الملأ كراغـب بالمعرفـة والمتحيِّـز إلى الخيريِّـة التامـة في آن.

الحكيـم المتعـرِّف في لحظـة انهمامـه بالكشـف عـمّا لا علـم لـه بـه، لا يرفـض اليقـين الدنيـوي كـما تنشـده الإيديولوجيـا، إلا أنّـه لا يتخـذه قياسًـا للأحـكام. ينظـر إلى الـولاءات والعصبيـات بعـين الحكمـة، يسـتحكيها بعقـل بـارد، يتبصَّرهـا بوصفهـا ظاهـرة، ويتأولُهـا كنمـط تفكـير. ومـن قبـل أنْ يصـدر حكمـه، ينـصرف إلى مسـاءلتها والاسـتفهام عـن بواعثهـا وديناميـات عملهـا. فليسـت مهمـة الحكيـم ـ بـما هـو حكيـم إلا أنْ يكـون في لحظـة التعـرَّف متساميًـا عـلى فتنـة المتناقضـات. ومـا ذاك إلا قصـد التحـرِّي والجمـع وتظهـير خـط التواصـل والامتـداد في مـا بينهـا بينهـا. ذلـك لا يعنـي البتـة

استقلاله السلبي أو حياده. هو ليس محايدًا بين الحكمة والضلالة. وبوصف كونه حكيمًا، فهو متحيِّز إلى الحكمة بما تفيض على سالكها من خيرية المعايشة. ولأنّ التعرُّفَ منفسحٌ يسمو فوق التحيُّزات، لا يلتجئ الحكيم إليه من أجل أنْ يكون محايدًا بين حق وباطل، وإنّما ليتحرَّى منازل الحقانية، والبطلان في مجمل التحيزات التي يعبر فضاءاتها.

والمتبصِّر بواجبية التعرُّف لا ريب لديه في قانون الاختلاف. فهو على دراية من أنْ تعرُّفًا بهذه الخصائص لا يضادّ الولاء لقضية وهوية ودين. ذلك بأنّ الولاء بلا عصبية، مُقِرٌّ بحقانية التنوع وحرية الاعتقاد. فالتعرُّف بما هو تعرُّف، من بديهيات الاجتماع البشري. ولأنّ الذي نسعى إلى تأصيل مبانيه وشرائطه، قائم على الجمع المتأنِّي بين التسامي على التعصُّب، والانتماء المُحِقِّ للهويات، أمكن أنْ ينفتح الأفق نحو تواصل خيِّرٍ بين الأديان والثقافات على تعدّدها واختلافها. بهذا يغدو التعرُّف جوهرًا أصيلًا في ذات المنتمي، يفيض من خلاله على الغير بما يختزنه من جميل، ثم ليستحثَّ هذا الغير الى إفاضة معاكسة هي أدنى الى ردّ الجميل بالجميل.

ولتظهير ما يمكن بوصفه هندسةً تفكيريةً لـ (فلسفة التعرُّف)، وجدنا أنْ نؤسس مسعانا على مبنَيَيْن رئيسين:

الأول: متصلٌ بالتلازم الوطيد بين التخلُّق والتعرُّف.

والثاني: متعلقٌ بالتبصُّرُ وسعة الصدر. وغايته تحقِّق الوصل الرحماني في عالم الإختلاف والكثرة. وعلى هذين المبنيين الكلام على التعرف والمحاورة الرحمانية يكتسبُ أهميته الاستثنائية. في سياق النقاش حول طبيعة الخطاب الديني. ولعل ما يمنح أطروحة التعرُّف أولويتها الخاصة، أنّها تكشف عن واحد من أهم وأبرز عوامل القطيعة بين الأديان الكبرى، وهو ما تعكسه الحالة النمطية من الحوار المعمول به على سيرة المجاملات العابرة. وهذا بالذات ما قصدناه بواجبيَّة الأخذ بقاعدة التعرُّف لتجاوز الجهل عبر معرفة الذات والآخر قبل الشروع بأي حوار.

الفضيلة العليا للتعرف لا تتوقف على تنوير مساحات الظلمة التي تحجب بصيرة المتحاورين وحسب. بل هي تمتد لتغمر بفضائلها كلّ من يمضي إليها أو يأخذ بناصيتها. وكلّما مضى المتعرِّف الى لقاء نظيره على خط الرحمانية، كلما انقشعت عن نفسه غمامة الجهل، فعرف نفسه وعرف نظيره، وتعرّف الى سبيل الله في عين الوقت.

أما العائدات التي يحصّلها السالك الى فهم سواه والتعرُّف اليه فهي كثيرة وجليلة على الجملة:

اولًا: سوف يساعده التعرف في معرفة دينهِ بنحوٍ أكثر عمقًا. وذلك على اعتبار أنّ الحقائق تدرك بنظائرها، أو كما يقال "إنّ الاشياء تعرف بأضدادها". ففي مسار التعرف الذي يحفر مجراه عبر التداول والاستقراء والمساءلة، يتكشَّف المزيد مما هو مجهول علينا من حيوات الغير. وهو مسار لن يكون له حدود ما دام مفتوحًا على الامتلاء المستمر بالعلم. لاسيما إذا تشكلت معلومات ومعارف هي حصيلة فهم الآخر لدين المتعرِّف ومعتقداته.

ثانيًا: سوف يعينه على معرفة مواطن الخلل التي ينطوي عليها سلوكه الديني حيال المنتمي إلى دينٍ آخر. ونعني بمواطن الخلل: شعور المؤمن الساعي الى المعرفة بالرضى والأمان داخل معزلِهِ الديني (الطائفي او المذهبي)- والشعور بالاكتفاء الذاتي وهو يعيش حبيس قلعته المغلقة- والنظر الى معتقده كطريق خلاص الى المدينة الفاضلة والى معتقدات الغير كموصل الى الجحيم.

ثالثا: من نتائج التعرف أنْ يغادر المتعرف عقدة الاستلاب الناتجة من جهله بنظيره حيث لا يتوقع منه إلّا سوء النية والشر المستطير.

رابعًا: سوف يتوصل المتعرّف الى إدراك معنى آخر للحرية. حيث تكف الحرية في حالة الادراك المتبصِّر لأبعادها الإلهية والأخلاقية، عن كونها مجرد لعبة تستباح فيها أفهام ومعارف ومعتقدات الغير. خصوصًا حين تتحول الحرية لديه الى سلوك بعد أنْ اختبرت في حقل التواصل الحميم.

خامسًا: من فضائل التعرُّف أنّه يمنحك منفسحًا لتوسيع معارفك ممّا في معتقد غيرك من محاسن وكمالات لا تتوفر في مجال ثقافتك الدينية والاخلاقية.

سادسًا: إمكان التوصل عبر التعرُّف الى ملتقى مفتوح يمكّن المتعرفين، وكلّ من موقعيته من بلورة استراتيجية تفضي الى الخير العام في ميدان الفكر والثقافة الاجتماع والسياسة والتنمية ومقاومة الهيمنة الخارجية والاستبداد الداخلي.

في مناخ التحولات الكبرى التي تعصف بعالم القيم ومسارات المعرفة، يجد المؤمنون بأديان الوحي، أنّهم امام اختبار إيمانهم الديني من جديد في سبيل تنمية حياتهم المشتركة وحضارتهم الإنسانية الواحدة. وفي غالب الاعتقاد ليس من أمر أكثر واجبية من التعرُّف والفهم بين الأديان.

الهوامش

١- الديلمي، الحسن بن محمد، إعلام الدين في صفات المؤمنين، ١١٨- ١١٩.
٢- الشيرازي، محمد بن ابراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، ٥/ ٨٨.
٣- الجندي، مؤيَّد الدين، شرح فصوص الحكم لإبن عربي، ص ٧٠٨.
٤- وردت هذه الأحاديث وسواها في أصول الكافي - باب الصدق وأداء الأمانة. وفي الوسائل (كتاب الحج - باب وجوب الصدق، وفي الحاكم النيسابوري، أبوعبد الله محمد بن عبدالله، المستدرك على الصحيحين، ٢ / ٨٤ - ٨٩.
٥- المحاسبي، الحارث بن أسد، كتاب الوصايا، ص ٢٥٥.
٦- م. ن، ٢٥٦.
٧- عبد الرحمن، طه، العمل الديني وتجديدالعقل، ١٣٥.
٨- هي رسالة في علم التصوف دوّنها الشيخ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن محمد القشيري النيسابوري (٩٨٦- ١٧٠٣م)، وتعد إحدى أبرز وأهم المصنفات التي تحتوي على معارف الصوفية ومبادئ السير والسلوك.
٩- القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية في علم التصوف، ٤٧٦.
١٠- م. ن، ٢٤٢.
١١- م. ن.
١٢- الألوسي، محمود بن عبد الله، روح المعاني، ٦/ ١٤٩.
١٣- حيدر، محمود، وأحدية الشرع والكشف في مهمة الولي الخاتم.
١٤- عبد الرحمن، طه، العمل الديني وتجديد العقل، ١٣٠.
١٥- حديث شريف.
١٦- الشيرازي، محمد بن ابراهيم، المظاهر الإلهية، ٨٦.
١٧- ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ٢.
١٨- م.ن، ٢.
١٩- ابن سينا ومسكويه والعلاقة بين الحكمتين ومبادئ كليهما.
٢٠- ابن مسكويه، أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ٤١.
٢١- م. ن، ٣٨.
٢٢- لعلّه من الصّواب أنْ نفهم في هذا السّياق أنّ المبحث الأنطولوجيّ عند مسكويه مقترن بالمبحث الأنتروبولوجيّ فهو من جهة علم للوجود ومن وجهة نظر أنتروبولوجيّة، وهو من جهة ثانية علم بالإنسان من وجهة نظر أنطولوجيّة، وهي منزلة بين المنزلتين تكشف عن الموقع الذي يحتلّه علم الإنسان وعلم الوجود في سلّم المواضيع التي تتناولها الفلسفة، وكأنّهما علمان يتنافسان على المرتبة الأولى.
٢٣- آيت أحمد، مريم، جدلية الحوار، مقدمة الكتاب، ٣.
٢٤- الدراوي، العياشي، محددات العلاقة مع الآخر وضوابطها في التصور الإسلامي - مصدر مرّ ذكره.

٢٥- بلعقروز، عبد الرزاق، (نظرية الفعل التواصلي وحدودها: من العقل التواصلي الى الانسان التعارفي)، ٨٨.

٢٦- آيت أحمد، مريم، جدلية الحوار، ١٣٣.

٢٧- دواق، الحاج بن أحمنه، "التثاقف من مسلوبية الاحتواء الى معقولية التعارف"، ١٢٠-١٢٢.

٢٨- عبد الرحمن، طه، سؤال الأخلاق، ١٤٧.

٢٩- م. ن، ص ١٤٨.

المصادر والمراجع

* ابن مسكويه أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، القاهرة، ط١، الناشر: المطبعة الحسينية، ١٩١٢.
* آيت أحمد، مريم، جدلية الحوار، قراءة في الخطاب الاسلامي المعاصر، تقديم: عبد المجيد النجار، ط ١، المغرب، منشورات مجلة علوم التربية، العدد ٢٤، ٢٠١١م، مقدمة الكتاب.
* بلعقروز، عبد الرزاق، "نظرية الفعل التواصلي وحدودها: من العقل التواصلي الى الانسان التعارفي"، مجلة الكلمة، م.س، العدد ٦٤ ن، ٢٠١٠.
* الجندي، مؤيَّد الدين، شرح فصوص الحكم لابن عربي، صححه وعلّق عليه السيد جلال الدين الآشتياني، ط٢، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٢٣.
* حيدر، محمود، الفقيه الأعلى – واحدية الشرع والكشف في مهمة العارف الخاتم، بيروت، دار المعارف الحكمية، ٢٠١٥.
* دواق، الحاج بن أحمنه، التثاقف من مسلوبية الاحتواء الى معقولية التعارف، لبنان، مجلة الكلمة، العدد المجلد ١٧، العدد ٦٧ (٣١ مارس/ آذار ٢٠١٠)٢٥ص.
* الديلمي، الحسن بن محمد، إعلام الدين في صفات المؤمنين، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ١٣٩٧.
* الشيرازي، صدر الدين محمد بن ابراهيم – الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة.
* ـــــــــــ، المظاهر الإلهية، تحقيق: جلال الدين الأشتياني، قم، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٩هـ.
* عبد الرحمن، طه، العمل الديني وتجديد العقل، بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧.
* ـــــــــــ، العمل الديني وتجديد العقل، ط٢، بيروت- الرباط، المركز الثقافي العربي.
* القشيري، عبد الكريم، الرسالة القشيرية في علم التصوف، تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطجي، ط٢، بيروت، دار الجيل، بدون تاريخ.
* الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي – باب الصدق وأداء الأمانة. وفي الوسائل (كتاب الحج – باب وجوب الصدق)،
* المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد، كتاب الوصايا، تعليق وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦.
* النوري، حسين بن محمد تقي، المستدرك.